التطفل في الاحياء

لمراسل مصطفى الشرباتي

رحم الله طفيلياً الكوفة فلقد سار اسمهُ في كتب الادب ومعاجم اللغة شرط بيعه وشفعة جوعه على لذيذ المآكل ، واستسهاله غضاضة الولائم دون ان يدعى اليها ، حتى ظنَّ بعضهم انهُ اول من اتى هذه الفعلة الخبيثة ، وحتى نسي الناس الوَرَش وهو التطفل والوارشين وهم الطفيليون . وطفيل هذا ليس بأول من دَمَّر على الولائم ليعيب من طعامها ، ولا بآول من دسق على المشارب ليوغل في شرابها . وكل حي على هذه الارض طفيلي ان طفيلي شاء ام ابى الا اذا استطاع ان يعيش في عزلة عن الناس ، ومن الحيوان ومن النبات وهو ما لا تأخذ به عيشته على هذه الكرة الارضية . ورب طفيلي يفيد اكثر مما يستفيد كاسحق الموصلي الشهير اذ يحكون انهُ دخل بلا اذن على جمع فيهم قينة تضرب على عود فلم ترقهُ حالتها وتارة فاقترح اصلاحها فتبرَّم المغنّون وقالوا له طفيلي وتقترح وهو المثل المعروف ، فأمر الموصلي بتحميم بعدها ما اقامهم واقعدهم حتى جئن جئوهم فكانت صفتهم في الرابعة . وقد يورد التطفل صاحبهُ موارد التلف كقصة ذاك الذي رأى جماعة يسيرون او يُسار بهم في الطريق فظنهم ذاهبين الى وليمة فاندس بينهم فاذا بهم ذاهبون الى القتل ولما علمت صاحبنا من السيف والنطع الا بعد لأي

ولكن ليس جميع الطفيليين على هذا لأن الطفيلي في غالب الحالات يأخذ منك اكثر مما يعطيك وهو اذا قصر همه على اشباع بطنه او اروائه غليله من فضلات زادك او شرابك كان امره اهون من ان يعتدَّ به او ان يؤبه له . غير ان هنالك الوارشين على مالك كالمرابين وسماسرة السوء واللصوص من التجار ولا سيما بعض الاجانب منهم ، والوارشين على علمك وأدبك وآثار قلمك يتقولون خيارها ويتحلون منها ويتحلون بها وانتك راتع ، والوارشين على بلادك يتمتعون بخيراتها ويسعدون في جناتها ويسخرون السفلة من ابناء جلدتك في استصفاء دمائها وسرقة اعلاقها . ولا حد يا صاح لاعمال الوارشين من ابناء آدم فمنهم من لا يقل عملهم عن عمل التيتيا وهي الدودة الربيضة اذ تستقر في امعائك تتمارك كل ما تهوي به على ذاك ، او عمل الدودة التي تستولي على عضلك ، او عمل الديدان الاسطوانية او المعقوفة عند ما تتكاثر في دقاق امعائك وتمتص زادك ودمك ، او عمل الجراثيم التي لا عمل لها وهي تنمو في احشاء جسمك وتتكاثر بسرعة البرق فتولد فيك الامراض التي تعرفها ، وربما قضت عليك وقذفت بك الى العالم الثاني في ايام او في ساعات معدودات ما لم تكن جلداً منيع الجانب عليها برسائل الكفاح ، ففي هذه الحال ربما افلتَّ من براثنها كما تفلت من براثن الطفيليين من ابناء آدم اذا تحليت بالصفات التي ذكرتها وكنتَ جديراً بالبقاء

ولا يذهبنَّ بك الظن الى ان الانسان والحيوان منفردان بهذه الاعمال الشائنة ، ففي دوحة النبات

انواع كثيرة تقوم افرادها بأعمال التطفل على مختلف اشكالها . فمن هذه الاعمال ما لا ضرر فيه كأن تطفل بعض النباتات المعترشة شجرة او سلكاً او حائطاً و بعضها تصعد عليها لتقترب من اشعة الشمس ومن خالقها العلي الاعلى . وهذه النباتات كثيرة العدد يعرف القراء كثيراً منها كالطبوق المعترش وصنوف من القرع واللوبياء والحلبان العطر وحشيشة الدينار وشب الليل والكرمة وغيرها . ويكون لها اسلاك تسمى عطفات او حوالق تعتمد بها دعامتها وتسير لغايتها صاعدة الى العلاء فلا هي تضر بمضيفها ولا هي تبخل على الانسان بأزهارها المعشقة او بأوراقها الجميلة او بأثمارها اللذيذة

ويا ليت كل الطفيليات كانت كهذه اذن لسهل امرها وهان شأنها ولما استحقت هذا الاسم القبيح . ولكن هنالك نباتات متسلقة ثقيلة الظل شديدة الوطأة على الشجرة المضيفة ، كالليلاب مثلاً فهو اذا التف على شجرة تشبث بكل شق دقيق من اغصانها وسوقها كأنه يخاف ان تفلت منه فيصبح مقعداً . وتراه ينمو على تلك الشجرة ويلتصق بها عضّاً وشغفاً دون ان يمتص شيئاً من نسغها ، بل يكسوها بأغصانه وأوراقه ويشع عليها الضجر والهزال فتستجير من ثقالته بالفلاح صاحب الارض فان اجارها سلمت والاّ عاشت هزيلة او حالكت مع الهالكين . وكم في الناس من ثقلاء كالليلاب اذا انت لم ترصد دارك دوهم قتلوا وقتلك وضقت انفاسك وأثاروا اعصابك وقصروا عمرك

وليست هذه النباتات طفيليات حقيقية لانها وان نزلت بابناء جلدتها ضيوفاً ثقيلة الظل فهي لا تستطعمها ولا تستقي منها . وثمة ما هو اشد منها فظاعة كالفشوث الذي يسميه الشاميون والمصريون «الطالوك» فهو ينمو على بعض البقول وعلى الورد ونبات السياج وغيرها ويلتف عليها بأغصانه الخيطية وينشب فيها مصات دقاقاً ولا ينفك يمتص نسغها ويغتذي به حتى تهزل وتبيد . وكالحمّيل والله يزون اذ ينشبان اظفارهما في جذور ما يصادفانه من الزروع فيغتذيان من نسغها ويعيشان وعيد من دم الغير بلا مشقة ولا عناء . وكنبات الهدّاة او الدبق فلكم شاهدناه على اشجار اللوز زاهياً ينمو بطل (فسخ) هذه الشجرة وهو اسعد خلق الله حالاً . فهل جال بخاطره انه يعيش من دم هذه الشجرة المباركة . وهب انه ادرك فظاعة عمله افتراه يرتدع عن الاضرار بها وهو لا يستطيع ان يعيش الاّ من زاد الآخرين وكل هذه الطفيليات لا تعد شيئاً مذكوراً اذا قيست بمعض فطور مجهرية تتكاثر في نسغ بعض الزروع والاشجار وتولد فيها امراضاً شديدة الوطأة لا تقل عن الامراض التي تحدثها الجراثيم بالانسان . ومن هذه الفطور تلك التي تولد صدأ الحبوب وسواد الزروع وتعفن الكرمة وغيرها من الامراض التي تعد بالمئات

وبعد فرأيت ان الحياة جلاد وجهاد ، وان كل حي طفيلي ابن طفيلي على اختلاف وطأته . وهل لك ان تفسر لنا لماذا جعلت الاحياء على هذا الشكل ولماذا لا تعيش بهناءة ما لم تتكالب على الرزق وما لم تتفانَ وراء متع الحياة وما لم يُسِدْ بعضها بعضاً في الدقيق والجليل من الشؤون ؟ هذه امور دقت عن متناول افهمنا . ويقولون ان فيها حكمة لا يدركها الاّ الذين اقشعت الغشاوة عن بصائرهم . فهل انت من هؤلاء النفر المليمين لتكشف لنا القناع عن محيا هذا الوجود العجيب ؟